الفصل الثاني

الأطفال واللعب

دراسة نص تربوي «لفروبل»

(نشرت هذه الدراسة في مجلة المعرفة السورية، د. مجمد جهاد جمل)

مقدمة

فريدريش فيلهلم فروبل، المولود سنة ١٧٨٢م، في أوبريسباخ من مقاطعة ثورنجياجنوب ألمانيا الذي يعد مؤسس إحدى المؤسسات التي أصبحت اليوم عماد أي مجتمع مدني، إنها «رياض الأطفال» يرى أن يتكون المنهج في رياض الأطفال من «أنشطة الأطفال الذاتية الحرة، وألعابهم الفردية، والجماعية، ومن الخبرات التي تقوم على أساس التعامل مع الأشياء المادية، والأمور المحسوسة، ومع الجوانب المختلفة للطبيعة» [الشيباني: ١٩٧٥، ٢٧٢].

والشروط الأساسية التي يجب أن تتوافر في هذه الأنشطة هي: «أن تكون نابعة من دوافعهم، ورغباتهم، وحاجاتهم الداخلية، وأن تكون ذات قيمة إبداعية فنية، تساعد الطفل على تنمية روح الخلق، والإبداع، وتنمية مواهبه، واستعداداته الفنية، وأن تكون ذات قيمة تعبيرية تساعد الطفل على التعبير عن ذاته الداخلية، وعن أفكاره، ومشاعره، ورغباته، وأن تكون ذات قيمة أخلاقية..، وذات قيمة اجتماعية...، وذات قيمة في تنمية القوى الجسمية، والعقلية» [الشيباني، ٢٧٣].

أما أنشطة فروبل التي يمرر من خلالها منهجه فقد كان دقيقا فيها بكل معنى الكلمة، وهي عنده «مرتبة في صعوبتها حسب سن الطفل، ومستوى نموه. وأوجه النشاط التي يتكون منها منهج رياض الأطفال..تحتوي العديد من الألعاب»" [الشيباني، ٢٧٣]، والأغاني، والأناشيد، والمهن، والحرف اليدوية، والرحلات، والزيارات، ومشاهدة الطبيعة في مظاهرها المختلفة، والرسم، والتصوير، والتعامل مع أشياء مادية كالعصي، والمكعبات

الخشبية، وغيرها من الأشكال الهندسية، والأدوات التي يسمي بعضها بالهدايا، والمشاركة في الاستماع، والمناقشة، والمحادثة، وقص القصص، وتمثيليات..ودراسة الحساب..

لقد اختار فروبل هذه الهدايا التي تدخل في إطار الوسائل المادية للعب الأطفال، وهي [الدائرة والمكعب والأسطوانة].ولقد شرح د. عبد الله عبد الدايم في كتابه: «التربية عبر التاريخ» مدلولات هذه الألعاب على أسس فلسفية وواضحة بعمق شديد، وطريف.

الطفل عند فروبل:

على الرغم من أن فروبل لم يكن عالم نفس بالمعنى الحقيقي للكلمة، فإنه كان ذا مبادىء نفسية، ومشروعه، وأفكاره تقوم على أسس فلسفية، وقد توصل إليها من ملاحظة سلوك الأطفال، منها أن:

١- التربية عملية طبيعية.

٢- الطفل كيان عضوي متكامل، ينمو من خلال النشاط الذاتي، ووفق قوانين طبيعية عضوية.

٣- الفرد جزء عضوي من الجماعة.

٤- الكون كله عضوي تنطوي تحته سائر الكيانات الجزئية، كما أن اليد، أو العين عضوان من أعضاء الجسم فالفرد عضو من الجنس البشري عضو في الوعي الكوني الشامل.. [عبد الدايم: ١٩٧٥، ٤٤٩]

نص للتحليل:

النص

يقول فروبل: «فاللعب أرقى درجات نمو الطفل، لأنه تعبير حرَ، وتلقائي يشبع من الداخل استجابة لنداء الداخل نفسه، حسب المعنى الصحيح لكلمة لعب».

«اللعب شهادة عن الذكاء الإنساني في هذه الحقبة من الحياة، فهو عامة نموذج، وصورة عن الحياة بمفهومها الشامل، حياة الطبيعة الداخلية، والغامضة في البشر كما في الأشياء.. فهو في النهاية ينبوع، ومصدر لأجل المنافع».

«فالطفل الهادئ والصبور بطبيعته، الذي يلعب باندفاع إلى حد إرهاق الجسد، سيصبح حتما رجلا قوي العضلات، هادئا، ومستعدا للتضحية بأفراحه وراحته..فلا يجوز أن ننظر للعب كشيء طائش، إنما كشيء عميق المعنى.. ففي هذه الألعاب التي يختارها الولد عفويا، ويندفع وراءها بشغف يتراءى مستقبله لأعين مربين أذكياء ودقيقي الملاحظة..فحياة الإنسان بكاملها، حتى رمقه الأخير، سواء أكانت صافية أم قاتمة، هادئة أم مضطربة، عاملة أم خاملة، خصبة أم عاجزة، تستمد ينبوعها من عهد الطفولة..»

«عن كتاب: أعلام التربية، حياتهم وآثارهم: أنطون الخوري: ١٩٦٤، ١٣١.١٣٢»

أهم الأفكارالتي تضمنها النص:

لعب الأطفال اختيار حر وتلقائي.

لعب الطفل شهادة على ذكائه.

اللعب صورة الحياة بغموضها وشمولها.

نوع اللعب مؤثر في طبيعة حياته المستقبلية.

قبل تحليل النص السابق لا بأس أن نعرض هنا شيئا من فكر فروبل التربوي: لقد أقبل فروبل على الطبيعة فأحبها، وقد تشبع بروح دينية مستقرة، وقد بدت عليه منذ طفولته الأولى أمارات طبع خاص به، إذ نتيجة حرمانه حنان أمه التي توفيت ولما يبلغ عمره الشهر العاشر، انعزل عن رفاقه، وتميز برقة القلب، والحساسية الشديدة، وبدا ميالا إلى الرومانتيكية التأمل الباطني والروح الرومانتيكية.

الفكرة الأولى تعد تعريفا لحقيقة طبيعة اللعب عند فروبل، وهي ترجمة لنظرته إلى موقع اللعب في التربية، فاللعب ليس نشاطا مكملا للتربية، وليس هامشيا أو إضافيا، أو مساويا لبقية العناصر التربوية بل مركزيا في التربية، واللافت في كلام فروبل أن اللعب عنده ليس هو الذي يخلق ميول الأطفال، بل انطلاقا من هذه الميول يتم اختيار نوعية اللعب، لأن هذا الاختيار هو «استجابة لنداء الداخل نفسه». وجاءت الفكرة الثانية لتؤكد أن «اللعب شهادة عن الذكاء الإنساني»، ويبدو أن الذكاء سابق عن اللعب، وليس اللعب هو الذي يخلق الذكاء وإنما ينميه ويطوره إلى أبعد حد ممكن.

وإذا كانت الفكرة الثانية قد وضحت الفكرة الأولى، فإن الفكرة الثالثة تأتي لتوضح الفكرتين السابقتين: «إن اللعب صورة الحياة بغموضها وشمولها» وهو يقصد بالحياة الداخلية الغامضة في البشر كما في الأشياء. «فإذا كان اللعب نموذجا وصورة عن الحياة» فإنه بالضرورة، نموذج عن طبيعة رؤية الطفل لهذه الحياة، وبالتالي سيكون اللعب الذي يختاره الطفل ممثلا لكيفية نظرته للحياة: إذا كانت نظرته إليها نظرة معقدة، متشابكة وعميقة، كان ما يختاره من الألعاب، متصفا بهذه الأوصاف نفسها.

في الفكرة الأخيرة «نوع لعب الطفل مؤشر على طبيعة حياته المستقبلية» تتوضح فكرة فروبل عن اللعب، وعن علاقته بحياة الطفل بشكل جلي، وليس المهم هو المثل الذي ضربه لعلاقة نوعية اللعب بمستقبل الطفل، لأن الكتب المتخصصة في مجال علم النفس التربوي وعلم نفس النمو مليئة بمثل هذه الأمثلة.. وإنما من الأهمية بمكان في هذا المثال هو صيغة التأكد من حصول النتيجة، وتحقيقها إذا توافرت أسبابها

أو يتجلى هذا التأكد من استعماله لكلمة «حتما» في قوله: «سيصبح حتما رجلا قويا» وبما أنه متأكد إلى هذه الدرجة، فإنه ينبه المربين إلى أن يتصفوا باليقظة، والدقة في الملاحظة، حتى يستطيعوا كشف ما سيكون عليه الطفل من خلال ما يختاره، وهو بين أيديهم من لعب، وهو طبعا لا يدعوهم لذلك لمجرد الملاحظة، بل ليوجهوا الأطفال الذين يسهرون عليهم الوجهة الصحيحة المشفوعة برغبة وبميول، وبمواهب حقيقية، حتى يكون النجاح في مهمة الحياة «مضمونا».

وينهي كلامه بما أصبح شبه قانون لدى علماء النفس، ولدى المربين بعده عندما أكد على أن حياة الإنسان كلها مرتبطة في طبيعتها بعهد الطفولة؛ فإذا كانت إيجابية خصبة، فلأن الطفولة كانت كذلك أيضا.

وبهذا يمكن أن نختزل نص فروبل في الشكل التوضيحي الآتي:

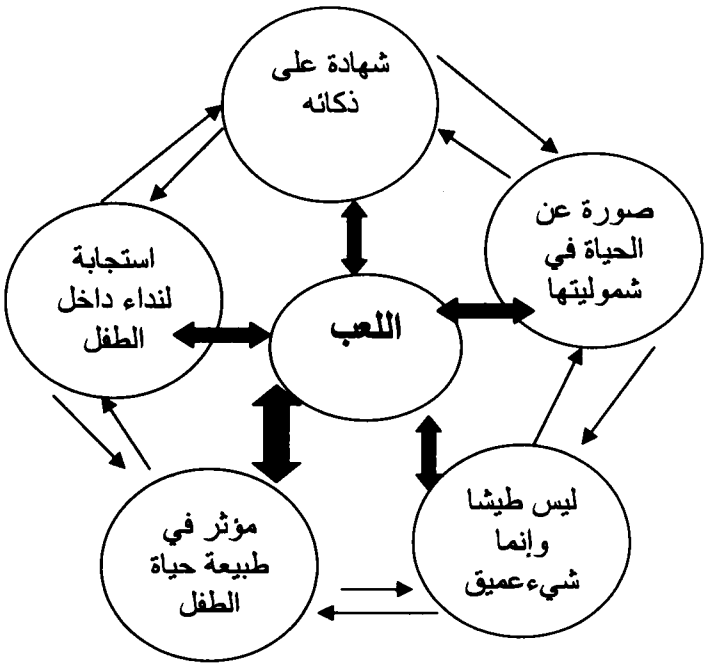

ما مرَمعنا في بداية الكلام، يمكننا اعتبار هذا النص شهادة حقيقية على فكر فروبل التربوي.. إنه كذلك، لأن اللعب في منهجه يحتل الدور المركزي، حتى إنه قد انتقد لأنه قد أغفل أي نوع من أنواع المعرفة المنظمة خلال هذه المرحلة التي يهتم بها من عمر الطفل [قبل المرحلة الابتدائية].

وبما أنه قد أعطاه هذا الدور في مخططه التربوي، فقد أتى منهاجه مستندا كلية على اللعب، بضم أغاني، وأناشيد، وقص قصص، وقص ورق، واللعب بالأشكال الهندسية [الدائرة، الأسطوانة، المكعب].

ومما يجب أن لا يترك غفلا في هذا النص، تأكيد فروبل أن اللعب نموذج وصورة عن الحياة بمفهومها الشامل، حياة الطبيعة الداخلية، والغامضة في البشر كما في الأشياء، أهمية هذا الكلام لا تظهر إلا عند الاطلاع على فلسفة [فروبل] في التربية، هذه الفلسفة التي كانت بعيدة كل البعد عن النظرة التجزيئية لعناصر الكون، فالكون كل، وعناصره تتعدد فيه كأصل، من خلال العلاقات القائمة بينها [لنتذكر هدايا فروبل إذ كان ينظر إلى أي ثلاثة أشكال مختلفة الأحجام على أنها ترمز إلى العلاقات الأسرية الموجودة بين الأب، والأم، والطفل].

علينا الآن أن نتساءل، بل نطرح على فروبل السؤالين الآتيين:

١- إذا كان اللعب، فعلا، نشاطا تربويا يتفق على نجاعته كل المربين، فهل بإمكانه أن يسع أفكارا فلسفية ميتافيزيقية كتلك التي أراد أن يصبغها على كل لعبة، وعلى كل نشاط من أنشطة الأطفال ؟

هل يمكن للعب في هذه المرحلة أن يكون وسيلة للوصول بذهنية الأطفال إلى إدراك " حقائق "كونية يؤمن بها فروبل، نتيجة تأملاته وقراءاته ؟ هل يمكن للدائرة والمكعب أن يكونا وسيطين بين فكر فروبل وذهنية الأطفال، حتى يوصلا إليها فكرة الثبات والتحول في الكون، وفكرة التعدد والاختلاف من جهة، والتوحد بعد ذلك، من جهة أخرى ؟ [المكعب عنده رمز إلى توحد المختلفات والمتعددات في أصل واحد].

يمكن للدارس أن يذهب مذهب فروبل في هذا الاتجاه للاعتبارين الآتيين:

أ- إن استطاع الأطفال أن يُعَدُّوا لما أريد لهم، ففي ذلك كل الخير لمستقبلهم.

ب- إن لم يستطيعوا ظلت هذه اللعب مجرد لعب، لا دلالات ولا إيحاءات لها، وبذلك، فإنهم إن لم يستفيدوا [فلسفيا] لن يفسروا شيئا كأطفال يلعبون.

٢- إذا خلت طفولة طفل من اللعب، ومن رفقة الأقران، ومن العدو، والمشاغبة...إلخ، فكيف سيكون مستقبله؟. مادام لم يلعب وبالتالي لم يحصل على مؤشر على مستقبله ؟ وهو حال فروبل. لقد أصبح فروبل مربيا متفلسفا، وهو لم يلعب في طفولته،

ولم يداعب دوائر ولا اسطوانات ولا مكعبات، ألا يمكن أن نقول، استنادا إلى هذا، إن اللعب شرط ولكنه ليس كل شيء كما أراد «فروبل» أن يجعلنا نقتنع ؟

هل يمكن للطفل أن يعيش بمعزل عن المجتمع ؟

«الطبيعية هي تربية ذاتية نابعة من الفرد نفسه» جاك روسو

الاتجاه الطبيعي في التربية

لاتتوافر لدى الطفل نية لارتكاب سوء ما، إذ من القواعد الثابتة لدى جان جاك روسو أن الحركات الأولى للطفل هي حركات مستقيمة، فلا يوجد في القلب البشري فساد أوعيب أصيل، وبالتالي لا يقوم بعمل غير الخير عند استجابته لطلب الطبيعية، فلا يصبح صالحا أو طالحا إلا بما يباشره من صلات، وعندما يفعل شيئا لأنه سمع ورأى. غير أن الطفل يمكن أن يصنع سوءا [يجرح نفسه / يكسر أثاثا] لكن دون أن يرتكبه؛ لأن فعل الضرر متوقف على نية الأذى التي لا تتوافر لديه مطلقا.

وإذا أحدث الطفل بعض الخلل فيجب ألا نعاقبه على إهمال منا، لأنه من المناسب إقصاء الأطفال إذا ما تركوا أحراراً عن كل ما يجعل حريتهم تكلف ثمنا فلا يجعل في متناوله أشياء ثمينة سريعة العطب، كما يجب ألا نلومه على ذنوب اقترفناها؛ فهو يفسد بسوءيراه أكثر من سوء نعلمه إياه، وعندما يكسر الأمتعة التي يستعملها يجب عدم الإسراع بإعطائه بدلا عنها، بل يجب أن يشعر بالحرمان، وفي حالة ما إذا كسر النوافذ يجب ترك الريح تلطمه، وعدم المبالاة بزكامه قبل الإقدام على إصلاح الزجاج، وعلى كل يبقى السكوت عند حدوث الخلل ذا فائدة كبيرة، فالطفل قد يسيء الكلام الذي يتلقاه بلا انقطاع ويفسر الإيضاحات المطولة على شاكلته.

يرى روسو في إميل أن .. الإنسان يولد ضعيفا، وهو في حاجة إلى رعاية، وهذا لا يأتي إلا عن طريق التربية.. فالتربية تأتينا من الطبيعة، أو من الأشياء، أو من الناس، وما نشوء خصائصنا وأعضائنا نشوءا باطنيا إلا هو تربية طبيعية، وما نكتسبه بتجربتنا الخاصة مما يحيط بنا هو تربية الأشياء، وما نتعلمه من أعمال النشء هو تربية الناس.

والواقع أن تربية الطبيعة لا تتوقف علينا مطلقا، وتربية الأشياء لا تتوقف علينا إلا من بعض النواحي، وأن تربية الناس وحدها هي التي تسيطر علينا فعلا.

وإذا كانت حياة الإنسان مرتبطة بهذه الأنواع الثلاثة من التربية، وكانت التربية التي تأتينا من الأشياء، والتربية التي تأتينا من الناس موجهة، فإن التربية الطبيعية هي تربية ذاتية نابعة من الفرد نفسه.

النص السابق مأخوذ من الكتاب الأول من رواية إميل أو التربية [جان جاك روسو، صدر في باريس سنة ١٩٦٦]، ويقع في ٦٢٩ صفحة وهو مقسم إلى خمسة كتب.

لقد كانت روايته «إميل، أو التربية» التي نشرت سنة ١٧٦٢ من أهم الكتب التربوية خلال القرن الثامن عشر وأوسعها تأثيرا على الفكر التربوي الحديث، فقد جاء إلى جانب مؤلفاته الأخرى في إطار النزعة الفكرية التي سادت هذه الفترة في أوربا والمتمثلة في حركة التنوير والنزعة الطبيعية اللتين تأسستا على نقد شديد لكل القيم الإقطاعية السائدة آنذاك والمتمثلة:

سياسيا: في سيادة الحكم المطلق المستبد [مثلا في فرنسا على عهد لويس ١٤و١٥].

اقتصاديا: فقد كانت الزراعة بدائية في طرقها وأساليبها، [ففي فرنسا مثلاً ١/ ٥ الأراضي كان يملكه رجال الدين و١/ ٥للنبلاء. وكان ١/ ٣ مجموع الأراضي يبقى معطلا من غير زراعة كل سنة]

اجتماعيا: نجد الطبقة الأرستقراطية تعيش في عالم خيالي من البذخ، والترف، وفي المقابل السواد الأعظم يعيش في ذل، ومهانة، وفقر [ألبير سوبول].

وعلى الرغم مما لحركة التنوير ـ من أهم أقطابها فولتير ـ من مزايا في تحرير الفكر من سيطرة التقاليد، والخرافات ومقاومة النظم الاستبدادية الفكرية، والاجتماعية (الكنيسة، السلطة، المجتمع) وفي التمهيد لحركات إصلاحية أكثر واقعية، واتصالا بحاجات عامة الشعب. فقد أخذ عليها عدة مآخذ:

ـ أنها حركة أرستقراطية هدفت إلى إنشاء أرستقراطية عقلية على أنقاض أرستقراطية الأسرة والنصب والكنيسة، ولم تهتم هذه الحركة بمجموع الشعب وبالطبقات الدنيا، بل كانوا يحتقرونهم، ويعتقدون أنهم غير جديرين بتحكيم العقل [سعد مرسي أحمد].

ـ أن أتباع هذه الحركة في محاربتهم للدين لم يفرقوا بين الدين في سموه، وبساطته، وبين الدين الممثل في تصرفات الكنيسة، ورجال الدين، وكانت النتيجة لرفضهم ولدعوتهم إلى التحرر الفكري على أسس عقلية مادية أن انتشرت الفوضى في النظام الاجتماعي، والإلحاد في الاعتقاد، والإباحية في الأخلاق [بول مترو].

ـ أن حركة التنوير كانت سلبية في انتقاداتها للأوضاع والمؤسسات القائمة، وأنها لم تولِ أية عناية للعواطف والمشاعر الإنسانية، وأنها كانت تبالغ في مدح المدنية.

هذه المآخذ التي اعترت حركة التنوير في النصف الأول من القرن ١٨ دفعت بعض مفكري هذا القرن إلى الانفصال عن هذه الحركة والمناداة بحركة، أو مذهب جديد، ومن أبرزهم الفيلسوف، والمربي الفرنسي جان جاك روسو الذي ظهر في النصف الثاني من القرن ١٨ بمذهبه الطبيعي الجديد الذي يقوم على الإعلاء من شأن الطبيعة المادية والطبيعة البشرية والحط من شأن المدنية القائمة في عصره، والدعوة إلى تنظيم المجتمع، وإعادة بناء الدين بما يتفق، والطبيعة البشرية، والإيمان بالطبيعة الخيرة للإنسان، وغيرها من المبادىء التي ركز عليها في روايته «إميل».

شرح النص ودراسته:

تكوين الفرد ..... موجهة من قبل المجتمع ..... تربية الناس تتم عن طريق التجارب الذاتية ..... تربية الأشياء تتم تمشيا مع النمو التلقائي الذاتي للميول الفطرية..... تربية الطبيعة

- **تربية الناس**: هي تربية موجهة من قبل المجتمع لتصقل الفرد في إطار الجماعة.

- **تربية الأشياء**: ترتبط بالتجارب والخبرات الشخصية للطفل التي تؤثر في تربيته، إذ بواسطتها سيتبين أن هناك أشياء موجودة بالفعل، ومستقلة عنه، والتي سيستفيد منها في تجربته، ومن ثم لا يجب أن نعارضه إذا أخطأ فالتجربة هي وحدها كفيلة بإصلاح خطئه.

- **تربية الطبيعة**: نوع من التربية يدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه، ويلائم ميوله، ورغباته، ويحث على تشجيع سائر إمكانياته الفكرية، والعاطفية، والأخلاقية،

واستغلالها في تربيته إلى أقصى قدر مستطاع، وإعطاء الطفل أكبر نصيب من الحرية، وتقوية صلته بالطبيعة، وبما فيها من حيوان، ونبات، وجماد... وأن يفكرالمربي في ميول الطفل، ونزعاته الفطرية، ويراعي ما يميل إليه.

- **تحليل ومناقشة:** يعتبر روسو تربية المجتمع [الناس] تربية موجهة لاتأخذ بعين الاعتبار إمكانيات الطفل وحاجياته، ومادام المجتمع فاسدا فإن هذه التربية ستكون بدورها فاسدة، وأن تصحيح التربية يكمن بالرجوع إلى التربية الطبيعية.

فكيف ـ حسب روسو ـ تكون التربية الطبيعية حلا لمساوىء التربية الاجتماعية ؟

يضع روسو في مستهل كتاب إميل المبدأ الأساسي للتربية حيث يقول: «كل شيء حسن مادام في يد الطبيعة، وكل شيء يلحقه الدمار إذا مسته يد الإنسان». فنحن نستمد تربيتنا من ثلاثة مصادر: الطبيعة، الإنسان، الأشياء، وإذا لم تتلاءم هذه المصادر ساءت تربية الفرد.

لقدكانت الآراء السائدة عن الطبيعة البشرية على أنها سيئة، وأن الهدف من التربية هو اقتلاع هذه الطبيعة، وأن تحل محلها طبيعة أخرى يشكلها الإنسان. ولقد عارض روسو هذا الرأي، ونادى بالتربية السلبية «إن أول تربية تقدم للطفل يجب أن تكون سلبية، وهذه التربية السلبية لاتتكون من تلقين مبادىء الفضيلة، والحق، ولكن قوامها المحافظة على القلب من الرذيلة، وعلى العقل من الذل» [Emile Du L Education op.p:34] .

فإذن وسيلة التربية هي النمو الحر الطليق لطبيعة الطفل، ولميوله الطبيعية. ولم يقصد روسو بالتربية السلبية أن تكون هناك تربية مطلقة، وإنما أراد أن تكون هذه التربية مخالفة لما كان معهودا من النظم التربوية في ذلك الوقت، فالتربية السلبية لاتعني فترة سكوت وكسل، ولكن فترة يحمى فيها الفرد من الرذيلة.

وإذا ما طبقت التربية السلبية على التربية البدنية، فإن روسو يؤكد على مطلق الحرية للطفل، وأبسط أنواع الأغذية، واستنكار أنواع العلاج الطبي، وإذا ما طبقت على التربية العقلية للطفل نجد روسو ينادي بعدم الاهتمام بالإعداد العقلي للطفل حتى ما بعد ١٥سنة، وإذا ما طبقت على الناحية الأخلاقية نجد روسو يركز على مبدأ التدريب الخلقي عن طريق الجزاء الطبيعي، أي أن المربي يمكنه أن يقوم أخلاق الطفل طالما يتمكن من أن يبين له أن العقوبة كانت طبيعية، وأن لا دخل للعامل الإنساني فيها مطلقا.

وهكذا نجد روسو يعارض ما بين الطبيعة، وسير المجتمع، ويندد فيها بالحضارة، وما تجر إليه من فساد وإتلاف، وهذا الفساد هو أساس تعاسة الإنسانية، لهذا ينص أن تكون غاية التربية الطبيعية هي تنمية ملكات الإنسان حتى يستطيع مكافحة الحياة بقوة، وصلابة، وأن يقوي ذاته إلى أقصى حد، وتلك غاية تتناقض مع ما ترمي إليه التربية الحالية التي تسعى إلى صقل الفرد في إطار الجماعة، وتقلص ذاتيته مخافة أن يتنافر النظام الاجتماعي.

هذه التربية يراها روسو تعسة تسلب المرء أكبر نعم الحياة؛ فهي تسلبه قوة الجسم إذ تحبسه بين الجدران، وتسلبه ملكة التقدير إذ تجعله لا يرى بعينيه، ولا يسمع بأذنيه وأن يرى بعيون المحيطين به، ويسمع بآذانهم، وتسلبه دقة النظر للأمور إذ تأخذ الجماعة وقته، هذا الفرد المصقول يُفنى في الجماعة، ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذي يعيش لنفسه، فروسو لايعنيه أن يكون تلميذه [إميل] قد أعد للجيش، أو للكنيسة، أو للقانون؛ لأن الطبيعة قد دعته لأن يكون رجلا قبل أن يختار له أبواه حرفة، فالحياة هي الحرفة التي يفضل روسو أن يعلمه إياه، والهدف الحقيقي لدراسته هذه هو الرجل وبيئته. ومن ثمة لزم أن نعمم نظرتنا، ونعتبر أن الطفل الذي نربي هو معرض للحوادث الإنسانية، والطبيعية لذا يستحسن أن لا نتركه بين الجدران متقوقعاً فيها لا يتعرض لقساوة الطبيعة، فهذا حسب روسو طفل ضائع. فيجب أن يحس معنى الألم والحزن، وندع جسمه يتكيف مع فصول السنة، يتحمل العطش، الجوع، التعب، الشقاء..فهذا من شأنه أن يعوده على المصاعب التي سيواجهها، وهنا يلتقي مع جون لوك حيث نادى هذا الأخير حينما يتحدث عن التربية البدنية من أن الطفل يجب أن يحيى في الهواء الطلق، والشمس عاري الرأس حافي القدمين ؛ لأن من شأن التربية الخشنة أن تقويه.[عبد الدايم: ١٩٨١، ١٦٠].

ويذهب روسو إلى أن الطبيعة تريد أن تربي الطفل، فلماذا نقوم نحن بإفراز تصورات عليه كما يجب أن يكون ؟ لندع الطفل يتكيف مع أهوائه كما أرادت الطبيعة، إننا نرتكب أخطاءً دون أن نشعر بذلك، بحيث نعمل على تلبية رغباته، وأحيانا عتابه دون أن يتعرف على خطئه فنساهم بذلك في تعليمه كيف يلقي الأوامر، وكيف يحصل على مايريد، وكيف يخضع. وهذا كله قبل أن يتعلم الكلام.

لهذا إذا أردنا أن يحافظ الطفل على طبيعته . يتساءل روسو . علينا بمراقبته منذ اللحظة الأولى من ولادته، ولا نفارقه أبدا من غير أن نغير ميوله، وعلى الأم أن تسهر على تغذيته.

وعلى الرغم من بعض إيجابيات مفهوم روسو عن الطبيعة، فإنه يبقى مفهوما ميتافيزقيا تجريديا، ورومنسيا لا يأخذ بعين الاعتبار دور الثقافة الأساسي في المجال التربوي. إن روسو يبالغ في معارضته لتدخل الإنسان في العملية التربوية، واتهامه إياه مسبقا بأنه تدخل سلبي وأصل كل الشرور.

والواقع أنه يستحيل علينا [في القرن ١٨نفسه] تصور أطفال مثاليين يتم عزلهم لحظة ولادتهم، وتركهم في غابة بعيدا عن التجمعات الحضرية ليتعاملوا مع الأشياء دون واسطة إنسانية. إن تدخل الإنسان كواسطة في عملية التربية يتم منذ اليوم الأول لولادة الطفل، ويتعمق يوما بعد يوم، لهذا يقال عادة أن الأم ترضع لطفلها عبر ثدييها نمط التفكير الذي سيحدد شخصيته مستقبلا [جمال هاشم، عدد٢٧٧٧، ت ١٤، ١٩٩١].

كما أن كل أنواع المحرم، وطرق المعاملة والتحية كلها ثقافة، لذا يستحيل أن نتحدث عن رضيع متروك للطبيعة. لهذا فهو في حاجة إلى والديه، وحينما يصل إلى يد المعلم تكون أهم معالم شخصيته قد تحددت سلفا، فقد أكد فرويد أن أهم معالم الشخصية تتحدد خلال السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل داخل أسرته. فهل يمكن أن نتحدث عن طفل كمادة خام نتركها للطبيعة؟

إن أقصى ما يمكن أن نقدم به هو ترك نوع من الحرية الموجهة للأطفال حتى يكتسبوا بعض المهارات الجديدة، أو للتمرن على حل بعض المشكلات بشكل ذاتي، أما شحن التلميذ ضد الحضارة، أو عزله عنها، فهذه دعوة غير سليمة، لأن للحضارة سلبيات وإيجابيات، ونحن حينما نعده للحياة علينا إدماجه في واقعه، وتوضيح السلبيات، والإيجابيات معا حتى لا يصطدم مستقبلا. ونحن حينما نتحدث عن الثقافة فإننا نتحدث عن مفهوم يتطور مع الزمن فأشياء المحيط تتغير، مثلا لعب الأطفال قبل ٢٠ سنة ليست نفسها اليوم. لكل هذا فتدخل المربي لتوجيه حرية الطفل النسبية مسألة أساسية.

وكنا ننتظر أن تتجه عناية روسو إلى تربية سواد الشعب الذي كان مهملا في فرنسا، لكن كتاب إميل، أو التربية يقرر أن الفقراء والضعفاء في غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم في الحياة يكرههم على احتمال العيش الذي هم فيه، ويبرر ذلك بكون التربية الطبيعية تريد أن تكون رجلا تتضح فيه ملامح الإنسانية، ومن ثَمَّ فتربية الفقير على الغني تبدو أقل أهمية.

[إميل])، ولعل ماذكره روسو في اعترافاته من أنه كتب استجابة لأم فاضلة هو سبب هذا التناقض بين مركزه كمصطلح ديمقراطي، وبين ماذكره في روايته إميل، ولاشك أن هذه الأم الفاضلة هي إحدى النبيلات ممن كان يعيش في كنفهن.

من جهة أخرى يؤمن روسو باختلاف طبيعته عن طبيعة المرأة، وبضرورة تربيتها بما يتماشى مع هذا الاختلاف

إنها خلقت لمتعة الرجل ولهوه، وإنها ليست سوى تابع من توابعه. ولعل روسو يجعل نفسه مقياسا. فقد لاقى عددا من النساء بلغ حبه لهن، وعجزه أمامهن، ومبلغ استخفافهن به ما كان ينتهي به إلى كراهتهن. لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن ويجب أن تكون النساء جميعا من صنف (تيريز لفاسير) جهالة وغباء، فإذن روسو كان ذاتيا حين معالجته موضوع تربية المرأة.

ومع ذلك فقد أحدث روسو ثورة كاملة في الفكر التربوي، وفي النواحي العملية للتربية أكثر من أي شخص آخر، فهو أول من نادى بحقوق الرجل العادي السياسية، والاجتماعية، كما أن كتابه إميل أول كتاب دافع عن سن الطفولة، وميزه عن سن الرشد، ونادى بتربية ملائمة لأعمار الأطفال، ولنموهم النفسي. فقد قال عنه المؤرخ مورلي: «لقد كان روسو أول من رفع صوته في جنبات أوربا المهذبة، وجعلها تصغي إلى تلك الأصوات الغريبة، وتلك الأصداء المنبعثة من غياهب الظلام المبهم الذي تتحرك فيه الجماهير».